

وصف إفريقيّة في أناشيد الحاج بوي مونثون

أ.م.د. صفاء عبد الله برهان (*)

مقدمة:

احتجن التراث الموريسكي الكثير من أدبيات القهر والاضطهاد، فدوّن أبناء الفردوس المفقود في القرن السادس عشر الميلادي، أحوالهم التي عاشوها تحت سلطة محاكم التفتيش القمعية، ولكن بلغة مخادعة لأولئك المتسلطين على الموريسكيين؛ ليظمروا هويتهم الدينية والاجتماعية والثقافية، وقد بلغ الحد بذلك القمع الفكري أن تغيرت معالم الثقافة الأندلسية، وأصبح الموريسكية بلغتها الأخميدية حاضنة لما بقي من آداب في طريقها إلى الاندثار؛ نتيجة مناخات القهر الاثني التي مورست ضدها عصر ذاك.

وهذا ما دعا الباحث إلى تناول هكذا نصوص، متخذاً عينة البحث مما قدمها الحاج بوي مونثون في وصف رحلته ورفاقه، ولاسيما أنها تأتي من مسلم موريسكي، قدّر له ما لم يقدر لغيره من أبناء جلدته للخروج من سلطة الإسبان، والذهاب إلى تأدية فريضة إسلامية، حضرت على أولئك القوم المغلوبين، فكانت تلك الأناشيد تمثل ذلك الشوق العقدي، لذلك المسلم الغريب عن أرض الإسلام، بعد فقدان قومه كيانه السياسي هناك، ففقدوا معه مقومات وجودهم فيه. وهو ما يمكن أن نتلمسه في مفردات هذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم، والذي يتناول (وصف إفريقيّة في رحلة الحاج بوي مونثون)، وكما يبدو من التسمية فإن المعالم العربية لأسماء المسلمين، قد اضمحلت نهائياً عهد ذاك، مع ما اضمحل من تراث أندلسي رصين، وكان لذلك الحاج الذي احتفظ بدينه، أن يخرج في رحلة فريدة من بلده، ليقتصد الشرق الإسلامي حاجاً إلى بيت الحرام، عن طريق البحر الذي أوصله إلى بلاد إفريقيّة، أول بلاد المسلمين التي شاهدها وزارها، فكان أن وصفها في ضمن ما وصف في رحلته، وقد دوّن ذلك في أناشيد باللغة التي يتقنها، فعرض لمشاهد من رحلته بتلك البلاد التي تؤدي إلى الشرق الإسلامي للقادم من الفردوس المفقود، وقد أخذ الباحث على نفسه متابعة الأناشيد التي

(*) جامعة بغداد/ كلية العلوم الإسلامية

نسري مع إفريقيّيس ذاك الذي
ساد بعزّ الملك أولاد سام
نخوض بالفرسان في مآقط
يكتر فيه ضرب أيد وهام
فأضحت البربر في مقعص
نحوسهم بالمشرقيّ الحسام
في موقف يبقى لنا ذكره

ما غرّدت في الأيك ورق الحمام^(٢)
بلحاظ أن هذه الأبيات لا يركن إليها؛ لأنه من
شعر الأوائل المجهول مصدره، ورأى فريق آخر
أنها نسبة إلى سكانها الأفارقة، فقد ذهب ابن أبي
دينار الرعيني (ت ١١١٠ هـ)، قائلًا: (سميت
إفريقيّة باسم أهلها وهم الأفارقة، والأفارقة من
ذرية فاروق بن مصرايم، وقال آخرون: الأفارقة
من ذرية قوط بن حام بن نوح عليه السلام سموا
باسم البلاد)^(٣).

وهذا مما يحتاج إلى الخوض في أنساب الأولين؛
للتثبت من أن ساكنة تلك المنطقة منحوها اسمهم،
وهو ما كثرت الآراء فيها، واعتمد الظن والسمع
أكثر من التدوين.

وذهب فريق ثالث إلى أنها سميت إفريقيّة؛
لموقعها الجغرافي الذي فرّق بين مصر والمغرب،
ومن هذا الفريق أبو الريحان البيروني (ت
٤٤٠ هـ)، كما نقل عنه ياقوت الحموي، قوله:
(سميت بلاد إفريقيّة وما وراءها بلاد المغرب،
يعني أنها فرقت بين مصر والمغرب، فسميت
إفريقيّة لا أنها مسماة باسم عامرها، وحدّ إفريقيّة
من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية
إلى بجاية، وقيل: إلى مليانة، فتكون مسافة طولها
نحو شهرين ونصف)^(٤).

والظاهر أن رأي البيروني ذو حظ كبير من

(٢) معجم البلدان: ١ / ٢٢٨.

(٣) المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس: ١٥.

(٤) معجم البلدان: ١ / ٢٢٨.

تختص بالمحطة الإفريقيّة من رحلة الحاج بوي
مونثون، ومتابعة مسيرة الرحلة بما دوّنه فيها؛
للوصول إلى صورة إفريقيّة وقتذاك.

وعلى وفق ذلك جاءت مفردات البحث في تمهيد
للتعريف بولاية إفريقيّة الإسلامية الكبرى، ثم
بيان المحطات التابعة لها مما مر به الحاج بوي
مونثون ورفاقه، من تونس وجزيرة جربة، وخليج
سرت وشبه جزيرة صفاقس، وأخيرا مدينة
طبرقة، ثم ختم بنتائج هذا البحث.

مدخل:

يقصد بإفريقيّة غيرها البلاد التي تشكل القارة
المعروفة بهذا الاسم، فهي المغرب الأدنى الذي
حده مؤلف مراكشي مجهول، بقوله: (حد إفريقيّة
طولا من برقة شرقا إلى طنجة غربا، وعرضها من
البحر إلى الرمال التي هي حاجز بين بلاد إفريقيّة
وبلاد لسودان)^(١).

وهي بلاد واسعة تقابل من جهة البحر
جزيرة صقلية وشبه جزيرة الأندلس شمالا، وقد
قيل في تسمية تلك البلاد بإفريقيّة آراء، الأول ما
ذهب إليه فريق ومنهم ما ذكره ياقوت الحموي
(ت ٦٢٦ هـ) نقلا عن ابن السائب الكلبي (ت
٢٠٤ هـ)، عندما عزا تلك التسمية إلى بانيتها، فذكر
أنه: (إفريقيّيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن
يعرب ابن قحطان، وهو الذي اختطّها، وذكروا
أنه لما غزا المغرب انتهى إلى موضع واسع رحيب
كثير الماء، فأمر أن تبني هناك مدينة فبنيت
وسمّاها إفريقيّة، اشتق اسمها من اسمه ثم نقل
إليها الناس، ثم نسبت تلك الولاية بأسرها إلى
هذه المدينة، ثم انصرف إلى اليمن، فقال بعض
أصحابه:

سرنا إلى المغرب في جحفل

بكلّ قرم أريحيّ همام

(١) الاستبصار في عجائب الأمصار: ١١/١ - ١١٢.

الصواب؛ لأنه يعتمد الحقائق الطبيعية والحدود الجغرافية، بعيدا عما أثر من قصص الأوائل التي لم يدونها كتاب أو يوثقها رواة.

أما عن عهد إفريقيّة بالإسلام، فهو منذ أن شرعت الجيوش العربية في فتح الأمصار، وقد بلغت أطراف إفريقيّة في أيام عمر بن الخطاب، الذي أبلغ بوصول الجند إلى مشارفها، عن طريق عمرو بن العاص، فحذره من دخولها؛ خوفا على المسلمين، ذكر ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)، قائلا: (إن الله قد فتح علينا إطرابلس، وليس بينها وبين إفريقيّة إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها، ويفتحها الله على يديه أفعّل، فكتب إليه عمر: لا إنها ليست بإفريقيّة، ولكنها المفرقة الغادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت)^(٥).

بلحاظ أن غزو إفريقيّة لم يتم عهد ذلك، فتوقفت الجيوش عند مشارفها، وبعد ذلك كان الرأي أن تغزو تلك البلاد في أيام عثمان بن عفان، فوقعت حروب بين العرب والبربر، أثخن العرب الجراح في البربر، حتى اضطروا إلى مهادنة جيوش العرب الغازية على أموال عرضوها، كما نقل البلاذري (ت ٢٧٩هـ) مرفوعا إلى عن عبد الله بن الزبير، قال: (أغزانا عثمان بن عفان إفريقيّة، وكان بها بطريق سلطانة من أطرابلس إلى طنجة، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح، حتى حلّ بعقوبة فقاتله أياما قتله الله، وكنت أنا الذي قتلتها، وهرب جيشه فتمزقوا، وبث ابن أبي سرح السرايا، ففرقها في البلاد، فأصابوا غنائم كثيرة، واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلام رأى ذلك عظماء إفريقيّة، اجتمعوا، فطلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم، ويخرج من بلاده)^(٦).

لقد كانت ردة فعل ابن أبي سرح للبربر

إيجابية، بعدما أذعنت له إفريقيّة سنة سبع وعشرين من الهجرة الشريفة، وكانت تلك الغزوة الأولى التي وصلت بها الجيوش العربية إلى تلك البلاد، بعدما توغلوا في تلك البلاد إلى حد ما، فقد ذكر الرعيني: (أجابهم عبد الله إلى ذلك، وصالحهم، وقبض المال، ثم انصرف عن إفريقيّة، بعد إقامته سنة وشهرين، وكّر رجاءا إلى مصر، بعدما أذعنت له بلاد إفريقيّة كلها وقسم الغنائم على الجند)^(٧).

الجدير ذكره أن عثمان بن عفان، كان قد وعد ابن أبي سرح بخمس الخمس نفلا، إذا ما تمكن من فتح تلك البلاد، مكافأة له على عمله؛ إذ قال له: (إن فتح الله عليك إفريقيّة، فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نفلا، فلما فتح إفريقيّة في هذه السنة وهي سنة سبع وعشرون قسم عبد الله الفياء على المسلمين، فأبقى الخمس لنفسه وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان)^(٨).

وهكذا فقد كان اسم ذلك القائد، يتصدر أسماء القادة العرب في ذكر الوجود العربي المبكر ببلاد إفريقيّة، كما تصدر اسم القائد العربي موسى بن نصير، والقائد البربري طارق بن زياد في فتح الأندلس، فقد ذكر اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ)، قائلا: (إن أول من دخل أرض إفريقيّة وافتتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان)^(٩). ومهما يكن من شأن فقد وصلت الجيوش العربية منذ ذلك التاريخ، لكنها لم تستقر بالغزوة الأولى بل تبعتها غزوات أخرى؛ نتيجة المقاومة الشديدة التي واجهتها تلك الجيوش، ولم تكن عملية الفتح يسيرة؛ لوجود عدد من المعارك العسيرة، قتل في بعضها القائد عقبة بن نافع سنة ٦٣ هـ، وقد توالى القادة الفاتحين على تلك البلاد، حتى تمكن موسى بن نصير من إخضاعها للحكم

(٧) المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس: ٢٤.

(٨) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ١٣ / ١.

(٥) فتوح إفريقيّة والأندلس: ٣٣.

(٦) فتوح البلدان: ٢٢٤ / ٢.

الأموي سنة ٧٩ هـ؛ لتكون تلك البلاد جزءاً من الدولة الأموية التي يحكمها عبد الملك بن مروان، واستمر على ولايته بعد وفاة سنة ٨٦ هـ، حيث ولده هشام الذي أقره على ولايتها، وكان من شأنه فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ^(١٠).

مدينة تونس:

كانت مدينة تونس أولى المدن التي نزلها الحاج بوي مونثون، بعدما غادرت سفينته مدينة بلنسية الأندلسية، ومدينة تونس من مدائن إقليم إفريقيّة الجليّة، ولها ماضٍ تليد في ذلك الإقليم المهم في الشمال الأفريقي، هذه المدينة كانت تعطي صورة للمجتمع المسلم، وما كان يدور فيه من حركة الأفراد والجماعات المحلية والوافدة، وأثرها في تكوين صورة تمثلها الثقافة المحلية؛ لأنه يسير على خطاها الأفراد والمجتمع، وقد ذكرها ياقوت الحموي، بقوله: (مدينة كبيرة محدثة بإفريقيّة على ساحل بحر الروم، عمّرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش، وهي على ميلين من قرطاجنة، ويحيط بسورها أحد وعشرون ألف ذراع، وهي الآن قسبة بلاد إفريقيّة)^(١١). كذلك ذكرها ابن الصباح الشاطبي، وهو من المدجنين الأندلسيين من أبناء القرن الثامن الهجري، ممن أسعده الحظ في الخروج من شاطبة في رحلة نادرة، وكان همّه حج بيت الله الحرام، بعدما تعذر على أبناء جلدته تأدية تلك الفريضة المهمة؛ لأنهم أقاموا تحت حكم الإسبان وقتذاك، فقال عن تلك المدينة في رحلته، واصفاً أحوال تلك الحضرة الإفريقيّة، وأحوال ملوكها الحسنه في الدين والدنيا، كما لم ينس أن يذكر اسماً آخر لمدينة تونس، وبيان سبب ذلك،

(٩) البلدان: ١/ ١٨٦.

(١٠) ينظر: فتوح إفريقيّة والأندلس: ٤٦_٧٥.

(١١) معجم البلدان: ١/ ٢٤٥.

فقال في ذلك كله: (مدينة تونس وملوكها الكرام، ذوي الفضل والجود والتوحيد والعلم الواسع في فنون العلم، وهي تسمى المعلقة في ابتداء الزمان، سميت بذلك لأنها معلقة في جبل وادي أبو جردة. وقيل: إنما سميت معلقة لأن الذين ينوها من العمالقة)^(١٢). كما ذكرها ابن عبد المنعم الحميري (ت ٩٠٠ هـ) واصفاً أحوالها الجليّة، وأثر ذلك في جذب المهاجرين من العدوتين، وتجليات هجرتهم في العمران، قال: (هي اليوم قاعدة البلاد الإفريقيّة وأم بلادها، وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين، ومهاجر أهل الأقطار من الأندلس والمغرب وغيرهما، فكثرت خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكنها، وأحدثوا بها المباني والكروم والبساتين والغروس، حتى بلغ ذلك النهاية التي لا توجد في غيرها)^(١٣).

كذلك أدت تلك المدينة دورها في تاريخ إفريقيّة القديمة، وقد تحدّثت الأيام عن تلك الصراعات السياسية، وتجلياتها على المجتمع المسلم، وكانت تعطي تلك الصورة المنشودة عند أبناء مجتمعها، وعند الآخر الزائر لها، وكان ذلك في الدين والعلم والأخلاق والرسوم والعادات ونحوها، ويزداد الأمر عند المسلمين الموريسكيين، ممن قصدوا بعد سقوط المدن الأندلسية عامة في القرن السابع الهجري، أو بعد استسلام مملكة غرناطة خاصة في القرن التاسع الهجري، وما تبع ذلك من هجرات منتظمة إلى الشمال الأفريقي عامة.

وعلى وفق ذلك فقد انفردت رحلة الحاج مونثون في تلك المدينة، بأنها كانت تتميز بالصورة المسلمة الأولى التي شاهدها، بعدما انزوى في مجتمع الموريسكيين، وكانت تمثل عنده نقطة الانتقال إلى الحياة الأفضل، بعدما ألقت نائفته المحلية العيش تحت سلطة القوة المناوئة، فكانت عملية الانتقال

(١٢) أنساب الأخبار وتذكرة الأخير: ١٠١.

(١٣) الروض المعطار في خبر الأقطار: ١٤٣.

عنده تتجلى في عملية تفاعله مع مفردات المحيط المزار، ثم إن هذه الحال قد أدت به إلى عملية موازنة واعية، عنيت بالتهذيب المعرفي، ورسم علاقة إيجابية مع أفراد المجتمع التونسي، فضلا عن السلطة المسلمة في تلك المدينة.

وهو ما يحرز معه تنشيط الثقافة الشخصية عند ذلك المسلم الغريب، فيتطلب معه أن يستثمر تلك اللحظة الاتصالية؛ لكي يدرك حقيقة وجوده بوصفه مسلما عانى الكثير من الاضطهاد، وكانت تلك الرحلة لها دور في دفع الذات المسلمة، وهو ما يدعو إلى خلق صورة للتوازن في الفكر الموريسكي، ويعني أنه كان يستكشف خبايا نفسه، مثلما يستكشف خبايا محيطه المسلم الذي حل في مرابعه، وهو شأن مهم كان أولئك الموريسكيون بهم حاجة إليه؛ لأنهم قد فقدوا الكثير من مقومات الشخصية المسلمة، فكانت رحلته فرصة نادرة للوصول إلى ذلك الشأن الخطير في تكوين الذات الموريسكية المهيضة تحت الاحتلال.

لكن الملاحظ أن النشيد السادس، وهو أول ما يطالع المتلقي عن وصف تونس، ورد ناقصا بسبب ما وصل إلى المحقق من نسخة الأناشيد المحفوظة، وكان من الممكن أن نقف على تفاصيل مكثفة، قد ذكرها الحج مونثون في ذلك النشيد، وما يمكن أن يعبر عن علاقته بتونس في غرة تواصله، وما يمكن أن يقف عليه من الانبهار؛ نتيجة مظاهر التباين بين بلاده وتونس، ومهما يكن من شأن فقد بدأ نشيده، قائلًا^(١٤):

كان بها مائة وستون ألف منزل

فهي مدينة ذات شأن

مدينة ذات ثراء

بها الخيل والشرف

لا يمكن عدها

لقد تنوعت هذه الرؤية الموريسكية نحو تونس؛

(١٤) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٦.

لما اشتملت عليه من مزايا، عبر عن جلالها المادي والمعنوي، بل أقر بعدم إمكانية الوصول إلى غاية ذلك، وهو ما يؤكد أن ثمة نوازع اجتماعية، كانت تحرك ذاته الأدبية لتطابق الصورة المحلية مع مشاهداته، وهو ما ينسجم مع ثقافات فرعية لمنظومة واحدة، جمعت الموريسكية والإفريقية في نشيد شعري، كان ذا صور داخلية وخارجية، ففرّع وصف تونس في النشيد السابع، قائلًا^(١٥):

إنها مدينة بهيجة

بالنسبة لمرتاح البال

أما من له مشاغل

فلا شيء يربحه ويسره

ولشوقنا المتلهف

اتفقنا على الرحيل

وخرجنا لقضاء الليل

في الضاحية

وهنا عرض صورة معرفته بمدينة تونس، بلحاظ ما كان يرمقه من أحوال ساكنتها، وقد أطلق في مطلع نشيده السابع معالم البهجة وأعقبه بالضنك، وألصقها على تلك المدينة، وقصد الذين قد سعدوا فيها براحة البال، وهنا قسّم المجتمع التونسي على شريحتين اجتماعيتين؛ تبعا للبعد الاجتماعي لهما، الأولى المسرورة براحة البال، والأخرى مشغولة بضنك واضح، ولا بد أن ذلك التقسيم قد تم عن طريق الاحتكاك المباشر مع أهل تونس، ومن ثم كان الرجل فيسعي للحراك المستمر جغرافيا واجتماعيا.

وهو ما أخذ بيده وأخذانه إلى ضاحية من ضواحي تونس، ولم يمكث ليلته في المدينة، وهو ما يعقد صلة بين الرحلة وثقافة المجتمعات، للوصول إلى ثقافة منسجمة، بلحاظ عناصر الرغبة التي تدفعهم إلى اكتشاف الجديد بين البادية والمدينة. وبعد ذلك كان للحاج مونثون أن يخرج من

(١٥) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٦.

حضرة تونس؛ ليمضي في رحلته متوخيا سبيل عدد من المدن الإفريقية المهمة التي ذكرها بنحو متتابع، وهو ما بين قوله^(١٦):

ومن تونس إلى الحمامات

ثم إلى هرقله

فسوسة والمنستير

ومدينة المهديّة

وأبحرنا في هذا الاتجاه

ثلاثة أيام دون طعام

إلى أن وصلنا خليج سرت

حيث ظننا أننا تهنا

وهو ما يدل على أن الأسماء المدونة التي ذكرها، كانت في الطريق الذي سلكه، ولم يمر بها أو ينزل فيها كحال تونس، فهي كانت تمثل الطريق (الساحلي) الذي سيمضي فيه، بعدما ركب من المرسى التونسي، في مركب مثل وسيلة الانتقال (خليج سرت)، ومنه لينطلق شرقا، فيتم مسيرته بين بر إفريقية وبحرها، وقد انطلق من المهديّة هذه المرة ليتجاوز آفاق القطر التونسي من

(١٦) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٧. الحمامات: مدينة شمال شرق تونس، وفيها صناعات تقليدية، تناقلها البحارة، وهي مكان لاستجمام كذلك، ولها أسوار قديمة، وهرقله: هي الهرقلية بلد قديم قريب من المهديّة على طريقها من تونس، وسوسة: مدينة قديمة على ساحل البحر، وفيها بنيان عظيم يسمى الملعب، وهي في سند عال ترى دورها منه، وهي مخصوصة بكثرة الأمتعة، وجودة حوك الثياب الرقاق وقصارها، وبينها وبين حصن هرقلية ثمانية عشر ميلا، وهي عامرة بالناس كثرة المساجد، والمسافرون إليها قاصدون وعنها صادرون. والمنستير: محرس من محرس سوسة، مشهور الفضيلة، وبه البيوت والحجر وموآجل الماء، وهو حصن عالي البناء متقن العمل، والمهديّة: مدينة محدثة بسواحل إفريقية، سماها بانيها عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين على لقبه، وابتدأ بناءها سنة (٣٠٠هـ)، وقد أحاط بها البحر من جهاتها الثلاث، وهي كثرة العمران و مركز تجاري، تأتيها السفن من المشرق والمغرب. ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣٣١، و ٥٥١، و ٥٦١، و ٥٩٤.

إفريقية حيث بدايات الجزء الشرقي منها، وهي غرب ليبيا الحالية.

جزيرة جربة:

من البقاع الإفريقية التي مرّ بها الحاج بوي مونثون في رحلته، وكانت تلك البقعة عبارة عن جزيرة بتلك البلاد، وهي الجزيرة الوحيدة التي سلكها في طريقه هناك، وقد ذكر جزيرة جربة كثير من الجغرافيين العرب، ومنهم أبو عبيد البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ): (على مقربة من قابس جزيرة جربة، وفيها بساتين كثيرة، وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج، وبينها وبين البر الكبير مجاز)^(١٧).

لقد تردد هذا الكلام في وصف تلك الجزيرة، وذكر أحوال أهلها الذين وصفوا بالشر، ومن أهم من ذكرها ابن عبد المنعم الحميري؛ إذ أكد ذلك في وصف جربة بقوله: (جزيرة في بحر إفريقية أقرب بلادها إليها قابس، يسكنها قوم من الخوارج وغيرهم، والشر والنفاق موجود في جبلتهم ولا يتكلمون بالعربية، وهم أهل فتنة، وخروج عن الطاعة)^(١٨). وكما يبدو من وصف الحميري، فإن تلك الجزيرة كانت تحتضن نخبة عقديّة، وهم الخوارج وكانوا يتفردون بنوع من السلوك الاجتماعي، مارس سطوته على ذهنية سكان الجزيرة من الخوارج، وقد تفاقم ذلك حتى مثل نفوذا واضحا على الأفراد والجماعات، وقد أعرضوا بذلك عن بقية أحوال المدن الإفريقية وقتذاك، وكانوا يخضعون لثقافة معينة في اللغة، ويبدو أنها كانت أمازيغية؛ لأنها والعربية اللغتان السائدتان بشمال إفريقية عامة، وعلى وفق ما ذكر فقد تحددت لأهل جربة أفكار ومعايير سلوكية وقيم اجتماعية خاصة.

(١٧) المسالك والممالك: ٢ / ٦٦٨.

(١٨) الروض المعطار في خبر الأقطار: ١٥٨.

والملاحظ أنه قد مرّ بمدن وحواضر كانت قبالة البحر، لكنه لم يسمّ واحدة منها، ويبدو أن أهوال البحر التي عاشها، قد أنسته السؤال عن تلك المدون والحواضر.

كان دخوله في المرة الأخرى التي وصل إليها إلى تلك الجزيرة، تحدث الحاج مونتون عن طريق أخرى إليها، وكان بحريا كذلك، وهذه المرة عن طريق مدينة المحرس التونسية، وهذا التنوع يشير إلى الطرق التي اضطر إلى أن يسلكها؛ بسبب الأحوال التي رافقت البحر.

ويبدو أن هذا الدخول كان عن طريق مدينة المحرس، وكان بابا للدخول إلى جربة، ولم يكن مقصدا للحاج مونتون؛ إذ إنه اكتفى بوصف مكثف لها في ضمن نشيده الثالث عشر، وما وقع له على وجه السرعة، وتبيان ما تعتمل من ثقافة أفرادها، بلحاظ وجود عدد من الاختلافات، ولاسيما عندما وصلها عن طريق مدينة المحرس التي ذكّر بها قوله (٢٠):

ومن هناك توجهنا إلى المحرس

مدينة جميلة

لم نتوقف فيها

ولكننا بتنا ليلتنا في المرسى

وكدنا نتيه

انزعج رئيس المركب

ووصلنا إلى جربة

مرسى السوق عندهم

والظاهر أن هذا الطريق الآخر الذي دخل منها الحاج مونتون ورفاق رحلته، كان يأخذ بهم إلى متسلسلة طبيعية، بحسب السبيل التي اختطوها في رحلتهم، وكانت تعبر عن رغبة في اجتياز تلك المحطات الرحلية، فهو لم يتوقف كثيرا بمدينة المحرس، بل انطلق إلى مرساها؛ ليحرز ركوب

(٢٠) المصدر نفسه: ٣٧_٣٨

كان الحاج مونتون ورفاق رحلته، قد دخلوا هذه الجزيرة مرتين، وكان ذلك في ضمن الطريق البري، عندما سار في الأرض اليباب وفي البحر الأبيض المتوسط، فكان يمثل نوعا من انعدام العلاقات الرابطة؛ لتلازم القلق في المسيرة نحو تلك الجزيرة، وما كان من وصفه للمواضع العسيرة، والأخطار الجسيمة إلى أن وصل إلى تلك الجزيرة، على حين كانت تلك الجزيرة تمثل مكانا إيجابيا عند نزوله في فيافيها، وما شاهده من مناظرها الجميلة التي كانت تمد وجدانه بالطاقة الإيجابية، وهو ينعم النظر في طبيعتها المزدانة بالخيرات، كما في لقاء عدد من الناس والتحاقهم بركب واحد، ولم يخلُ هذا الموقف من خطورة عند مغادرة الجزيرة.

لقد سجل الحاج مونتون تاريخ وصوله إلى جزيرة جربة، وذلك في اليوم الثاني من ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وهو اليوم السادس والعشرون من كانون الأول، وقد بين المراحل التي وقطعها قبل وصوله الجزيرة، وهو ما ينشده في النشيد الثامن، بقوله (١٩):

في اليوم الثاني من ميلاد المسيح

سرنا في تلك الوديان

قارة في اليبابسة

وأخرى في البحر

عبر الحواضر والمدن

وأخطار البحار المظلمة

إلى أن وصلنا إلى جربة

تلك الجزيرة ذات الخضرة الكثيرة.

وهنا اكتفى بوصف ذلك الطريق الذي سلكه للمرة الأولى نحو تلك الجزيرة، وقد بدأ باجتياز وديان معينة لم يذكرها بالاسم، بعد ذلك كان يسلك طريقا بحريا، ولم يزد على وصف أحوال الجزيرة بأكثر مما ذكر، ويبدو أنه لم يستقر بها كثيرا؛ لأنه لم يعقب بعد ذلك بوصف لها،

(١٩) أناشيد الحاج بوي مونتون: ٣٦.

أن يفهم معه انعزال الوصف الجمعي هنا، عمّا يعطيه من آثاره على طبيعة الحياة المستقرة هناك، فتلك الفواكه الكثيرة التي وصفها، كانت تحمل معها صورة للجزيرة المزدانة، كما هو الحال مع وصف بلاده الأصلية الأندلس، وهو ما يمكن أن يعطي صورة محلية للرخاء بتلك البلاد معاً، وأن الحاج مونثون ورفاقه تواصلوا مع المزايا الطبيعية والاقتصادية لطبيعة البلدان، وهو ما يعطي صورة لرؤية فردية وجمعية، ولم تكن الرمال المحيطة بتلك الجنان؛ لتمنع امتداد تلك الصورة الإيجابية.

وهذا فإن التفات الحاج مونثون في هذا النشيد، إلى طبيعة جزيرة جربة الإفريقية، كان يدخل في ضمن ما وصفه الرحالة من الطبيعة التي تحيط بالبلاد، وهو شأن يعطي صورة واضحة عن جغرافية البلاد المزارة، وما كانت تتمتع به من خصائص طبيعية ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية، تؤثر في طبيعة مفردات حياة مجتمعها، بما جعلها من المواضيع الجغرافية المهمة التي كانت تؤمن للوافدين مسالك الوصول، فضلاً عما يحتاجه من مؤونة السفر في عدد من محطاتها التي يتوقفون عندها بعد رحلة مع الماء، وهو ما يوسع آفاق الموريسكيين في تلك المسالك التي خاضها أجدادهم الأندلسيون فاتحين.

وكانت تلك الجزيرة التي لم يتجاوز مرساها، نقطة انطلاق الحاج مونثون ورفاقه من الحجاج في البحر، وقد وصف خروجه على مركب، في النشيد الخامس عشر^(٢٢):

خرجنا نحن الحجاج
من جربة فرحين
مع كثير من التجار
قاصدين الإسكندرية
ونحن نبحر في اتجاهها

(٢٢) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤١.

بعض مراكبها الداخلية، فتوصله إلى جزيرة جربة، ومع ذلك لم ينس أن يصف تلك البقعة بالجمال، وهو ما يعطي لمسة وصفية إبداعية مكتنفة جداً، ولكنه لم يستقر بها بل في مرساها الذي وقع له، ما أزعج شخصيات النشيد التي عضدها برئيس المركب، وكانت اللحظة الاتصالية الأولى بمرسى مدينة جربة، في هذه الرحلة البحرية القصيرة. وهنا نجد أن مركب الحاج مونثون ما زال يتنقل بين شواطئ المدن الساحلية، ويذكر أسماء تلك المدونة تعريفاً بها، وكذلك لأن تمثل الطرق التي تسلكها المراكب في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، ومنها نتعرف على تلك المسالك البحرية التي شاعت عهد ذاك، وكانت تؤمن الانتقال بين الضفتين الواقعتين على البحر الأبيض المتوسط. على أن جزيرة جربة أخذت من وصف الحاج مونثون، وكانت تظهر الطبيعة الصامتة التي ازدانت بها، ويبدو أنها كانت من متلازمة الوصف التي كانت تتمثل في تكثيف واضح، يظهر ما يستثمر منها في الوجدان الموريسكي الجمعي الزائر لتلك البقعة الإفريقية المتميزة، ومدى الأحوال التي تقدم مشاهدا علمية وترفيهية، بعد محطة من العسرة قبل أن يصل جربة، فقال في النشيد الرابع عشر^(٢١):

الجزيرة جميلة جداً
وبها الكثير من أشجار الفواكه
فيها التفاح والمشمش والكمثرى
وكثير من العنب والتين
وأشجار النخيل
ذات التمر اللذيذ
إنها جميلة جداً
وإن كانت مليئة بالرمال.

يبدو أن سكون الطبيعة بتلك الجزيرة، قد أفردت معها حديث ذلك الموريسكي، من دون

(٢١) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٩.

في أعالي البحر الهائج صادفتنا عاصفة قوية إنه أمر مخيف.

فكانت تلك الجزيرة نقطة للانطلاق من البقاع التونسية، ويلاحظ هنا أن حملة الحاج مونتون، قد انضمت إلى مجموعة من التجار؛ ليمسي ذلك الرهط الموريسكي في ضمن حملة مختلطة لا يشاركها الرغبة في الحج، بل مرافقة إلى محطة معينة في هدف معين، وكان حريصا على بيان صورة البهجة التي ترافقه، ولعل ذلك مما زود الموريسكيين خبرة ذات أهمية خاصة بأبناء جلدتهم خارج الفردوس المفقود، وزود ورفاقه بإطار ذي معنى يوجهه في تكيفه مع نفسه ومع الآخرين، ولكن ذلك السرور بالرغبة والجماعة تخلله فزع من مخاطر البحر، فعملت على توجيه الفعل والعناصر الذاتية الشخصية الفاعلة، وقد ركز فيها وفي غيرها تركيزا شديدا على (فعل الخوف)، وما ينتج عنه من تصرفات فردية وجمعية عند المسافرين.

ومهما يكن من شأن فإن وصول الحاج مونتون إلى جزيرة جربة وخروجه منها، كان يمثل خطرة في رحلة؛ لأنها كانت تمثل محطة من محطات الوصول إلى الهدف الأقصى، ولم يظهر من ربط الثقافة بعادات الناس وسلوكهم، إلا القليل مما لم يحرص على التفاعل معه كثيرا، أو أنه قد كثف تصويره بما ينسجم مع طبيعة الأناشيد البنيوية، وهو ما يمكن أن يمثل انحباس الثقافة الاجتماعية لديه، بعدما شاهد ما يحبس الأنفاس بتلك المدينة؛ إذ حبست أنفاسه في مياها الإقليمية، وهو شأن مهم في التفكير الجغرافي عند المسلمين، كما في أدب الرحلات الذي برع فيه الأندلسيون والمغاربة، وهو الشأن الذي رده الحاج مونتون ورفاقه عهد ذلك، ولكن مع اختلاف في الظروف التي أحاطت بهم؛ نتيجة السرية التي كانت تحاصر رحلة أولئك

الموريسكيين، وعدم الكتابة بالأسلوب المتميز الذي كتب به أجدادهم.
مدينة صفاقس:

من المدن الإفريقيّة المهمة التي مرّ بها الحاج مونتون، وكانت تتمثل في ثقافة محلية واضحة، عبرت عن طريقة معيشة سكانها، على أن هذه المدينة تلفظ بصاد وسين أحيانا، ذكرها الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ)، بقوله: (مدينة صفاقس مدينة قديمة عامرة، لها أسواق كثيرة وعمارة شاملة، وعليها سور حجارة وأبوابها عليها صفائح حديد منيعة، وعلى أسوارها محارس نفيسة للرباط، وأسواقها متحركة، وشرب أهلها من المواجل) (٢٣).

كذلك اختزلت تلك المدينة الكبيرة، ما كانت تحتجبه الجغرافية الإفريقيّة من معالم الحضور الاقتصادي، من دون التعرض إلى المنظومة القيمية والمعتقدات والأفكار، فضلا عما يمكن أن يستخلص من مجموعة العناصر المكونة لثقافة المجتمع وسلوكياته؛ فقد كانت المدة القصيرة التي أقام بها الحاج مونتون ورفاقه بصفاقس، لا يمكن أن تظهر معها ممارسة تأثيرها بوضوح على ابن المدينة والزائر لها.

وهكذا فهي من المدن العامرة بالبنين، والمزدانة بمفردات الحياة المحلية الراحية إلى حد كبير، بل كانت تلك المدينة من أمات المدن الإفريقيّة، فقد ذكرها أبو عبيد البكري، إذ قال عنها: (هي مدينة على البحر مسورة، ولها أسواق كثيرة ومساجد وأجمع، وسورها صخر وطوب، ولها حمامات وفنادق وبواد عظيمة، وقصور جمّة، وحصون وراطات على البحر) (٢٤).

إن صورة التثاقف التي يمكن أن يخرج لها زائر صفاقس، كانت تقارب في ضمن قراءة الواقع

(٢٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: ١/ ٢٨٠.

(٢٤) المسالك والممالك: ٢/ ٢٦٩.

المحلي لها على وفق متغيرات الزمان والمكان، وهو ما وقع للحاج مونثون ورفاقه، فلم يكن لهم من تماس كبير مع المجتمع الصفاقسي، ما يخلو من إثارة الحس الاجتماعي بذلك الامتناع، وهو ما ظهر في طبيعة الحركة البطيئة بتلك المدينة، على الرغم مما تمتعت به صفاقس من جمال طبيعة وعمران واضحين، ولكن ذلك لم يكن يعنى بأحوال الموريسكيين الزائرين لها، ولم نشهد سوى عدد من التفاصيل الصغيرة على وفق مناخات الرحلة؛ بحسب ما أخرجته من مشاهد كانت جزءا من الصورة الكبرى لمسار رحلة هذه الثلة الموريسكية.

لقد أوقفنا صورة مدينة صفاقس عند نزول القوم بها، حال من الضنك الجمعي الذي لازم الحاج مونثون ورفاقه، وقد تعدد ذلك الضنك ونال منهم كثيرا، كما وصفه في النشيد العاشر، بقوله^(٢٥):

عندما وصلنا إلى صفاقس

والجوع قد نال منا

والإبحار قد أنهكنا

وسوء الحظ عذبنا

لم نجد لمواساة الأمانا

لقمة خبز

نشترتها

أو يتصدق بها علينا

ويظهر من هذه التوصيفات النفسية التي ساقها الحاج مونثون، مدى ما وقع من مواقف نالت منه ومن رفاقه، وقد أثرت جميعها في سلوكهم؛ لما لذلك من آثار بدت عليهم عند شروعهم بالنزول في مدينة صفاقس، بلحاظ أنه قد قرنها بهاجس سلبي، وهو سوء الحظ؛ لما له من أهمية في أفق تطلعاتهم التي خيبتها من قبل جوع وتعب، وقد تأكدت تلك اللحظة العصبية بتردد الجوع

(٢٥) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٦.

مرة أخرى في البر، بعدما نال منهم في رحلة البحر، وهو ما يعطي صورة عسيرة لحالهم في الموضعين، ولعل ذلك من المواقف التي فصل أحوالها؛ لشدة تأثيرها فيهم، ولبيان أحواله للمتلقي، فيوثقها من ضمن أهم المواقف بصفاقس خاصة، وبإفريقيّة عامة، وقد بدا تأثيرها الاجتماعي يزداد، عندما لم يجدوا ما يسدون رمق ذلك الجوع، بما يضمنون معه تحسن أحوالهم، ولاسيما في اللحظة الاتصالية الأولية بمدينة صفاقس ومجتمعها المعروف بكثرة الخيرات، وتمدّن العمران، ولكنه لا يبيع ولا صدقة كان بانتظارهم، بلحاظ أن مسألة الكسب والرزق، كانت من مصادر تمويل لتلك المدينة من قبل الزائرين لها، ويبدو أن سوء الحظ فعلا كان قد لازمهم إلى حين، فكان يعيشون العيشة من دون حل لمقصدهم، فأبعد عنهم تلك الطمأنينة النفسية والجسدية معا.

كان لتلك اللحظة أن تعقبها لحظات حزن طوال، ولاسيما أن شأن الجوع قد أخذ مبلغه من تلك الأنفس الغريبة، فكانت تفتقد إلى ما يديم حيوتها الجسدية والنفسية، بل ما يعد أكبر دعائم التماسك الحيوي في الأجساد والأرواح، وقد استمرت تلك الحال إلى أن التقوا رجلا كان سببا في زوال تلك الحال العسيرة، كما تبين من النشيد الحادي عشر الذي أنشده الحاج مونثون لوصف ما وقع لهم، قال^(٢٦):

وأنا سائر مع رفيقي

تكبر أحزاننا

نتحدث مأساتنا

التقينا رجلا أجنبيا

فقادنا إلى حظيرة

بها ماشية كبيرة

اشترينا منه كبشا

بسبعة نصرية

(٢٦) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٧_٣٨.

لقد كان لوجود ذلك الرجل الذي وصفه بالأجنبي، أثر كبير في استنقاذهم مما ابتلوا به منذ أن ركبوا البحر إلى لحظة لقائه بمدينة صفاقس، وقد كان ذلك عن طريق المصادفة من دون السعي نحوه، على الرغم من أنهم كانت بهم حاجة لأمثاله، ويبدو أنه قد قدم لهم حلا ضروريا، عندما قادهم إلى حضيرة الماشية، فكشف عن عنوانه الاجتماعي وعمله بتلك المدينة، وهنا يبدو أثر تلك الشخصية الطارئة التي أنقذت الشخصيات الرئيسية، بعد مجموعة معقدة من المشاهد التي مروا بها، فأدى بذلك دورا حيويا عندما باعهم كبشا، وهو ما يعني إيجاد الضالة التي جددت حيوية نفوسهم، عبر ما تفرضه طبيعة الأثر الجسدي والنفسي معا، ويبدو أن ذلك كان في منطقة ريفية من صفاقس؛ لأن مثل تلك الحضائر تنتشر في الأرياف عامة، ولاسيما أنه ذكر أن عدد الماشية كبير، وهو مما يعطي صورة لبعض اقتصاد صفاقس، وتنظيم شؤونها بالبلاد الإفريقية، بلحاظ أنه قد بين نوعية العملة التي استعملها بالشراء، وهي (نصرية)، ويبدو أنها كانت من أيام بني نصر ملوك غرناطة كما تدل عليه التسمية.

وعلى وفق ذلك اللقاء مع تلك الشخصية الطارئة، حدثت تغييرات مهمة لحال الحاج مونثون ورفاقه، بعدما اشتروا منه كبشا، ما أدى إلى تحرر حالهم البالية مما حل بها، ومن ثم فقد اتجهوا إلى تنظيم حالهم من جديد، ولاسيما أنهم عملوا على طبخ الكبش لتجديد قواهم في تلك البقعة الإفريقية، وهو ما بان في النشيد الثاني عشر، قال^(٢٧):

وضعنا الكبش في قدر

دون ماء ولا توابل

ولا أي شيء آخر

طبخناه هكذا

ودون خبز أكلنا

وهنا نجده يعبر عن سلوك جمعي اضطراري، كان نتيجة حصيلة ما تراكم عليهم ببداياتهم في مدينة صفاقس، وقد اتضح ذلك في تجردهم جميعا لطبخ الكبش، من دون لوازم الطبخ المعهودة، ما يدل على شدة الجوع التي لا زمتهم، ولاسيما أنهم تناولوا لحم الكبش دون خبز، وهو ما يتجاوز القناعات الطبيعية، ويعبر عن تجاوز الحرج الاجتماعي في طريقة طبخهم وأكلهم؛ لوجود الحافز النفسي مع نظيره الحسي المادي، وقد عبر بلغته التعبيرية عن التسارع بتأثير الجوع في قدرة الإنسان، ومن ثم كان للطعام الذي تناولوه أثره في امتصاص متاعب السفر، فعبر الحاج مونثون عن ثقافة خاصة في حالة سيولة، فالوسيلة التي طبخوا بها الكبش المبتاع، كانت تبدي معها مرونة للتكيف مع طريقتهم هذه، ولكن ليس من الضروري أن يكون نموذجها متجددا في رحلته، كما أظهرت ذلك أناشيده، بل يتغير شكلها على وفق متغيرات الواقع المزار بالبقاع الإفريقية، وهو ما يظهر سمة للشخصية الرحلية، وما تمتعت به من إدارة الأمور في الغربية، والتعاطي مع الأزمات النفسية والجسدية الطارئة، للحفاظ على مسار الرحلة التي يسعون إلى إكمال محطاتها، فكان التعاون فيما بين تلك الثلة الموريسكية يمثل ضرورة قصوى؛ لإيجاد الحلول الناجعة للمواقف المحتمة، وكان فريق الحاج بوي مونثون قد أعد نفسه لمثل تلك المواقف، ولاسيما أنهم خبروا التعامل مع محاكم التفتيش الإسبانية، والآثار النفسية والجسدية الكارثية الذي أحدثته في مجتمعهم المعزول عهد ذلك.

خليج سرت:

وهو الموضع الآخر الذي وصلت إليه رحلة الحاج بوي مونثون، وكان حلقة الربط بين مدينة صفاقس التي غادرها الحاج مونثون ورفاق

(٢٨) المسالك والممالك: ٢٠٥١/٢.

(٢٧) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٣٨.

رحلته، وبين مدينة طبرقة القادم ذكرها، وخليج سرت يمتد على طول المدينة المعروفة بهذا الاسم مما يلي الغرب الليبي في أيامنا، وقد كان من ضمن مياه ولاية إفريقية الكبرى وقتذاك، ومدينة سرت تمتعت بمزاياها الجغرافية والاجتماعية الخاصة، فدلّت على ثقافة مجتمعا المتشكل من مجموعة من الخصائص السائدة، ويمثل مجتمعا محليا له ثقافته البحرية المتراكمة؛ فقد ذكرها البكري: (مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور من طوب وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب: قبلي وجنوبي وباب صغير إلى البحر ليس حولها أرباض، ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة، وذبائحهم المعز طيب اللحم)^(٢٨). وهو ما يظهر المزايا الجغرافية والاجتماعية لسرت، وعليه فقد تكوّنت لديها عوامل التأثير في

الزائرين؛ لأنها تعطي الفرد القدرة على التعامل مع المجتمع المحلي الخاص بها، وتزوّد به بما يشبع حاجاته البيولوجية والنفسية معا، فهي تحرز بذلك العوامل المترابطة بالثقافة المجتمعية، وهنا يدرك الزائر مزاياها التي اتخذت طبيعة وارفة، فقد ذكر ابن عبد المنعم الحميري عن سرت أنها (مدينة في برقة، بينها وبين طرابلس مائتا ميل وثلاثون ميلا، وبينها وبين البحر ميلان، وعليها سور تراب، وفيها النخل ولا زيتون بها، والتوت بها كثير وبعض شجر تين، غير أن العرب أتت على أكثرها، وكانت فواكه وأعنان زهبت)^(٢٩).

ولا بد بعد ذلك أن يدرك المتلقي، أن عملية الانتقال التي يمر بها الزائر في مساحات الطبيعة المتنوعة لسرت، كانت تشكل صورة العلاقة التي ترتسم فيها، وما تبديه بهدف المشاركة الإنسانية في المدينة أو الخليج معا، وهو ما يضيف مجموعة من الوسائل التي تضمن للزائرين التعاطي مع

لقد عرض لنا النشيد السادس عشر، صورة للطمأنينة الموقّنة التي عاشها الحاج مونثون ورفاقه، وكان لها أن تتقلب بسرعة نتيجة العاصفة التي اشتدت وهم في خليج سرت، فكان أن أخذت موقعها في نفوس الجميع، وقد عبر عن ذلك بقوله^(٣٠):

**عندما أبحرنا
في خليج سرت
كنا مطمئنين
لكن العاصفة اشتدت
وهاجت الريح في البحر
فأخذ القائد يصيح
بإفراغ المركب
أملا في النجدة**

وهنا نقف على موقفين متعاقبين أوردهما النشيد، وكان لهما أن يخضع لقوانين الطبيعة البحرية، وما يرافقها من تغييرات يطال بها المحسوسات، وتؤثر في الذات الإنسانية، ومدى المراوغة التي غيرت الحال بعد برهة في انطلاقهم من خليج سرت، عن طريق تلك العاصفة التي اشتدت أوارها في وقت قصير، ومن المؤكد أن آثارها ستظهر في اشتداد الأمواج التي حاصرت المركب، وتقاذفتهم أيدي الرياح القوية، ثم إن الدور الرئيس هنا سيكون لشخصية أخرى أوردها النشيد، وهي شخصية قائد المركب التي ستؤدّي دورا رئيسا، على الرغم من أنها من شخصيات الرحلة الثانوية؛ لكي يحدث المقاومة

(٢٩) الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣١٢.

(٣٠) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٢.

(٣٠) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٢.

من النفس الإنسانية، وأن طبيعة العلاقة تتجه نحو البقاء في الحياة، وهو ما بان من الفعل الحركي للتجار والحجاج، ولا تقتصر على علاقة الخواص منهما، إذ يقدم كل منهما الكثير للآخر، كما أنه لا بد من ذلك حتى وصل الحال للتخلي عن المقومات اليومية، (زاد الحجاج) فضلا عن المقومات الطويلة الأمد (الأشياء الثمينة)، فالتناغم في حركة الحجاج والتجار كان مرتعا خصبا، يمدهم بمقومات البقاء المطلوبة، ثم إن الصورة المرعبة التي صورها الحاج مونثون، كانت تعبر عن الذات التي تحاول الخروج من تلك العسرة، وهو ما يمثل وصول الأحداث إلى نقطة الذروة، وإن الشخصيات الرئيسية والثانوية قد اشتركت في تصوير ذلك المشهد مسرح الأحداث، وهو اضطراب المركب بسبب هيجان البحر، وهو ما يمثل حلقة سلبية من حلقات الرحلة البحرية، فيحتاج إلى الخبر في الخلاص من تلك الحلقة الحرجة.

وتبدو جمالية هذا المشهد البحري في تلك الحبكة، وما رافقها بعد ذلك من انفراج الأحداث نتيجة ما كان من لطف إلهي، وليس بسبب الإجراءات التي قام بها ركاب المركب في خليج سرت، وقد أوضح ذلك الحاج بوي مونثون في النشيد الثامن عشر^(٣٢):

شاء المولى العلي
الملك القدير أن ينجينا
فكل شيء ملكه
إذ أمر البحر أن يسكن
فتضرعنا إليه
وشكرنا بكل خشوع
عظمته وجلالة
على مشيئته بإنقاذنا

هنا تتجسد القدرة الإلهية في نجاة المركب،

(٣٢) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٣.

المطلوبة لهيجان البحر الطارئ، فيكون على وفق ما أصدره من أوامر بحسب خبرته، جزءا مهما في مسار الرحلة البحرية، وهو شأن يمنحه الدور الرئيس الذي يمنحه خبرته في الأمور المصيرية، نتيجة تطوّر الموقف في البحر وانعدام الخبرة في هذه الحال؛ للنجاة بالأنفس دون المتاع، وهذه الصورة المخيفة التي عرضها الحاج مونثون، كانت الأولى في رحلته عن طريق البحر، ويبدو أنها قد أخذت مبلغها في نفسه وجميع من في المركب؛ لأنهم قد تخلوا عن المتاع أملا في النجاة من أهوال البحر، وهو ما يدركه المتلقي في امتداد تلك الصورة إلى النشيد اللاحق.

كان للبعد الحركي دوره في النشيد السابع عشر، وهو ما يعطي للصورة المحلية التي عاشها الموريسكيون، ونقصد بها ما مرّ بهم في هيجان البحر، وما وجد من حلول سريعة لها، فيقدم معها صورة الاستجابات المناسبة للطرف الطارئ، ومواجهة التحديات التي تعصف بهم، وهو ما يمكن أن يدرك إزاء كل تحدٍ أو أزمة يمر بها، وقد بين الحاج مونثون ذلك في خضم ما عاشه شخصيا، بقوله^(٣١):

كانت هناك ريح عاتية
سرعة كبيرة
في إفراغ المركب
دون أن نعبأ بالبضائع
وقد ألقيت إلى البحر
أشياء ثمينة للتجار
وكذلك بعض زاد الحجاج

وهنا يبدو أن هناك علاقة جدلية بين (الموت والحياة)، وهو ما يتبين من مجموعة الإجراءات الجمعية للركاب، وقد كان للحفاظ على النفس الأولوية في الفكر والسلوك عند الجميع، وأن ذلك لا يمكن تجاهله مهما غلا ثمنه، فلا شيء أعلى

(٣١) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٢.

بلا مؤونة إن ألقى بها في البحر خوفا على المركب

ولكن النجاة من تلك الأحوال، قد اتبعه تبعات من الهم، وهو ما قد عاناه أولئك الناجون من تلك الأخطار البحرية، ونعني به زهاب المؤونة التي سبق أن أفرغوها ضريبة للنجاة، فكان ذلك الهم ملازما لهم عند النزول في مدينة سرت، والأُنكى أن تلك المدينة الإفريقيّة كان من البيئات الطاردة للزائرين؛ بسبب سلوكياتهم الاجتماعية السلبية، وهو ما أشار إليه الكثير ممن عرف بها، ف(أهل سرت من أحس خلق الله خلقا وأسوئهم معاملة، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وربما نزل المركب بساحلهم بالزيت وهم أحوج الناس إليه فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويكونها ثمّ يصفونها في حوانيتهم وأفنيتهم ليروا أهل المركب أن الزيت عندهم كثير، فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما ابتاعوا منهم إلا على حكمهم)^(٣٤). وهو ما زاد هموم أولئك المنكوبين بنكبة البر والبحر.

وبذلك فقد أولئك الحجاج والتجار مصدر الإعانة، أو التمويل، وهو ما يحتاجونه لمتابعة المسيرة بتلك الأرض القفر من المكارم، ومعنى هذا أن مناخات المعاناة حبستهم في البر بعد البحر، وربما قد يتعرضون إلى موقف غير متوقع، إذا ما فكّر في مواجهة الأحوال؛ إذ إن تلك الأجواء الخائفة أُرمت الحاجة لديهم إلى ديمومة البقاء.

وعلى وفق ذلك كان لرئيس المركب أن يدرك تلك الحقيقية، فعمل بخبرته بأولئك الناس أن يتجاوز ما يمكن أن يسقطه في مأزق جديد، بعدد من التدابير الوقتية التي يمكن لها أن تحل بعض وجوه المحنة إلى وقت معين، وهو ما أفصح عنه

وهو ما يمثل صورة للإيمان الذي عاشه ذلك الموريسكي، وما كان يمثله من نبض روحي كان ضرورياً لأمثاله، بعدما لم تأت توجيهات قائد السفينة إلا برفع الضنك الروحي، ومن ثم فقد كان لذلك الإيمان أن يجسد تلك القدرة العليا، وما تتفرع عنها من المعاني العميقة التي يكتنزها وجدان الحاج مونثون، كذلك ردة الفعل الإيمانية لنجاتهم، وهي التضرع والشكر الذي قدماه لله تعالى بخشوع، ما يفظن تلك المعاني السامية لأبناء الفردوس المفقود، عندما لم تستطع محاكم التفتيش إجهاضها، وهو ما يمثل ارتفاع الخط البياني لحركة الموريسكيين والتجار الآخرين، على وفق نظرة واحدة تحت مناخ دين واحد عند مواجهة الأزمات، ومن ثم بدأت الروح المعنوية عند أولئك القوم بالتصاعد من جديد، بعدما ذهب هاجس الغرق في خليج سرت مأخذه، وأن مشيئة الله تعالى كانت تجسد القدرة المطلقة في النهاية. ولا ريب في أن ذلك قد دفعهم إلى طي تلك الصفحة الرهيبة، للتوجه إلى مسار رحلتهم وما يحتاجونه من لوازم متعددة، ولاسيما أنهم قد وصلوا إلى مدينة سرت، تلك المدينة الإفريقيّة المهمة، فكان لهم شأن آخر يتجاوز الحال التي عاشوها في خليجها.

والمؤكد أن التعاقب في البعد النفسي، كان له أثره في أن يعرب عن ديمومة الحركة في رحلة الحاج بوي مونثون، وقد بان ذلك في النشيد التاسع عشر، قال^(٣٣):

وبعد ما جاورنا سرت
ومر الهلع والخطر
بقي لنا هم آخر
وإن كان أقل ضررا
حيث كدنا نظل

(٣٣) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٣.

(٣٤) المسالك والممالك: ٢ / ٢٥١. (٣٤) المسالك والممالك:

النشيد العشرون^(٣٥):

نادى الرئيس السبتى

أحد أبناء عمه

ماسكا إياه بيده

وأخذ منه قسما

أن يأتّمه على المؤونة

وأن يوزع

الخبز والماء بعدالة

وأن يؤتي منها الصغير والكبير

وهنا تظهر آثار الحرص الشديد الذي كان يمثل الموقف المطلوب؛ لأن تلك البلاد لا تحتفي بالغريب، وأنه سيعاني الكثير من المواقف النفسية والاجتماعية، وينطلق نحو حلول بديلة بعيدا عن سلوكيات الوعي الجمعي، بعدما آيس من تحصيل متطلبات معيشته هناك؛ لذا كان إيمان رئيس المركب بعض قرابته، وتشدده بأخذ القسم، كان يعطي للحاج مونثون فرصة للتأمل في مشكلات مجتمع سرت عند القادمين عليهما، وردة الفعل التي يحرزها بهم من يعرفه أحوالهم وعائش طبيعتهم، وهي صورة تشتمل الكثير من معاني النقد الاجتماعي، وتحلل ما يمكن أن يقع عليه الغريب من تفكيك الأزمات الطارئة، فكانت الحركة التي قام بها ذلك الرئيس الخبير، تنطوي على تفاعل اجتماعي واضح؛ للحفاظ على الوجود الحيوي لأفراد المركب كافة، وهذه الفكرة تؤكد أن ذلك الفعل الشخصي المتمرس، ليست نتاجا شخصيا معزولا، بل كان مرتبطا بخبرة متفاعلة عند نزوله سرت مرات متعددة، هو الشأن الذي حتم عليه مسؤولية إدارة الأزمة، وهي مسؤولية مهمة تحكّم جميع أفراد المركب، وكانت تمثل عصب الحياة في تلك الساعة الحرجة؛ لذا كانت الشؤون العامة تدور في الفكر الخاص لرئيس المركب، فأمسى حلقة إيجابية من حلقات الرحلة

(٣٥) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٤.

بتلك المنطقة المهمة.

مدينة طبرقة:

وهي آخر البقاع الإفريقيّة التي زارها الحاج مونثون، وكانت من ضمن المسار البحر الذي سلكه في رحلته، فضلا عن طريق البر الذي تمثل بجغرافيتها الطبيعية، وكانت تمثل مدى جديدا للرحلة، فهي: (مدينة بالمغرب من ناحية البر البربري على شاطئ البحر قرب باجة وفيها آثار للأول وبنيان عجيب، وهي عامرة لورود التجار إليها، وفيها نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج في بحر طبرقة، وفي شرقي مدينة طبرقة قلاع تسمى قلاع بنزرت) (٣٦).

وإن المتتبع لجغرافية طبرقة يبصر مدى كبيرا في حدودها المائية، وأثر ذلك الموقع المهم في الحياة الاجتماعية لساكنتها، وهو ما يمثل دورا من الأدوار التي تؤديه المسالك البحرية في الحياة، وعلى وفقه يدرك معها تأثيرات التضاريس في الإنسان، وقد كان ذلك يترجم في النهر الكبير الذي يشق طبرقة، وما تحمله مياهه من سفن للتجار، فضلا عن فرع البحر الأبيض المتوسط الذي يحادي تلك المدينة، وقد ظلت تلك التضاريس تحكّم واقع الحياة، كما أنها كانت معلما تعرف به تلك المدينة، وكان يمدّها بأسباب القوة الاقتصادية؛ بحسب موقعها الجغرافي المهم، فهي من كنوز البحر، فضلا عن نزول المراكب الأندلسية بها، كما ابن حوقل النصيبي (ت بعد ٣٧٤ هـ): (طبرقة المذكورة مع صغر مقدارها، وثقه منزلتها فإنما اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالأندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها، وتعشيرهم كان في سالف الزمان بها، وهي اتجاه أوائل الأندلس من المكان الذي هي به) (٣٧).

(٣٦) معجم البلدان: ٤ / ١٦.

(٣٧) صورة الأرض: ١ / ٧٤_٧٥.

والحق أن تلك الجغرافية الغنية لذلك المجتمع، كانت تؤثر في المزاج العام الاجتماعي لأهل طبرقة، وقد تحسس ذلك الحاج مونثون ورفاق رحلته، عن طريق المواقف الإيجابية التي عاشها، بخلاف حال سرت التي تقدمت بالسلبية، فأفصحت عن تلك الشؤون الجديدة، بعد أن لاحت معالم المدينة البحرية في عيون الزائرين، فكان أن كشف عن صورة مهمة من صور الرحلة، بما تفردت به من مزاياها الجغرافية والاجتماعية، وهو ما يعطي صورة للعلاقة بين الجغرافية والمجتمعات المقيمة بها، فإنها تؤثر بمناخاتها العامة والخاصة في الذات البشرية.

كانت صورة الإغاثة التي حازها الحاج مونثون وركاب المركب عامة، تتشكل عن طريق تدبير رئيس المركب، وقد رددت مفردات النشيد الحادي والعشرين؛ إذ بينت مقدار تغير الأحوال بسبب الحنكة البحرية والإدارية لذلك الرئيس، وهو ما أوصلهم إلى مرسى طبرقة سالمين من الأحوال، فقال^(٣٨):

**لقد أغاثونا في الحقيقة
ولم يتركونا نمس بسوء
خلال كل المدة
التي قضيناها في البحر
وشاء الله ومدنا بعونه
ووصلنا إلى مرفأ
بمملكة طبرقة
بفضل منه وبركة**

وهنا نجد أن الحركة السريعة التي اتخذها رئيس المركب، قد أخذت ما كان يخطط له للحفاظ على الركاب من الهلاك جوعاً أو عطشاً، ثم إن ذلك فتح له السبيل مرة أخرى؛ ليواصلوا الرحلة التي صادفت الكثير من الأزمات، وكانت الوجهة المقبلة مملكة طبرقة التي تشكل محطتهم

الأخيرة في إفريقيّة، بعد مراحل نبضت بالحركة والتقلبات، ونجد هنا أن هذا النشيد يغلب عليه الهدوء البين، وأن الجميع قد خيمت عليهم الطمأنينة والاستقرار، ولاسيما أن الجميع قد أدرك لطف الله تعالى بهم، وأخذت يد قدرته الجليلة بتلك الثلة الموريسكية مع التجار الآخرين إلى مرفأ طبرقة، ليبدأ فصلاً جديداً من الرحلة، وقد تعالت معها مفردات الحمد والثناء على جميل صنع الله تعالى بهم، وهو ما يعطي شعوراً عالياً بالرضا لأولئك القوم، وأنهم قد اجتازوا محن البحر والبر، بعدما اجتازوا محن محاكم التفتيش الإسبانية، وهو ما يشعر المتلقي أن المحطة الأخيرة في رحلتهم بين مياه إفريقيّة وبرها، كانت ذات صورة إيجابية بعد صور سلبية متعددة، سواء كانت بسبب الطبيعة الهائجة بالبحر والقاسية بالبر، أم بسبب الطبيعة الاجتماعية لمحطات من الرحلة تبعا لحركة البشر.

لذا فقد كان النشيد الثاني والعشرون، يؤكد تلك الحال التي لاحت عند وصولهم مرفأ طبرقة؛ بحسب الاستقبال الحافل الذي لاقوه من قبل أبناء تلك المدينة الإفريقيّة المهمة، فقد ذكر الحاج بوي مونثون^(٣٩):

**كان العرب
يأتون رجالا
وبعضهم ركباناً
على خيولهم
رافعين أيديهم إلى السماء
تحية السلام
فخرج الرايس السبتي
والكاتب عبد الرحمن**

فالحركة الاجتماعية التي أعلنها عرب طبرقة، كانت تؤثر إلى تلك المزايا الخلقية لأولئك القوم،

(٣٩) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٥.

(٣٨) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٤.

وكانوا كما وصفهم الحاج مونثون ركبانا ومشاة، وكل هذا ما يشكل صورة لصناعة الثقافة الاجتماعية لهم، وهي صورة الترحيب بالغريب القادم إليهم، فيأنس بتلك الوفود القادمة نحوه، ولاسيما الإشارة الأولى التي تطلقها أيديهم للسلام على الغريب، ما يغرس الطمأنينة عند الوافد على طبرقة، وكان ذلك سجية في أولئك العرب، لم تغيرها الطبيعة المتغيرة للزمان والمكان، وهو ما يصور سبيلهم للتواصل مع الآخر، وهي صورة إيجابية متفردة عما سواها من الصور الأخرى التي مرت به، ومزية لإنتاج نصوص رحلة الحاج مونثون، وكانت تتعزز العلاقة بين الضيف أيا كان ومن أية جهة قادم وبين مضيفه، فضلا عن أنها تزيل ما لحق بالحاج مونثون ورفاقه من توترات مزمنة في البر والبحر، وعلى وفق ذلك تضافر البعد الاجتماعي مع البعد الديني بطبرقة؛ ليدفع إلى تعزيز حركة المجتمع الطبرقي وثقافته المحروزة، فتعطي صورة نفسية مريحة للوافدين، ويبدو أن المجتمع المحلي لتلك المدينة كان حريصا على تلك الصورة؛ لأنها كانت تمثل عنوانهم الاجتماعي الذي توارثوه، ولم يكن لهم من مندوحة للابتعاد عما غرس فيهم من سجايا أصيلة، كانت تعلي كعبهم الاجتماعي.

هذا الشأن يؤكد من صدر عن طبرقة مع رحلة الحاج مونثون، عندما كشف النشيد الثالث والعشرون، ما قاموا به من تضييف الحاج مونثون ورفاق رحلته، وجهزوه في اليوم الثاني بما يحتاجونه لإتمام رحلته، قال (٤٠):

وفي صباح اليوم التالي

جلبوا مؤونة كبيرة

من زبدة ولبن

وماشية كثيرة

اشترؤا خرفانا سميئة

(٤٠) أناشيد الحاج بوي مونثون: ٤٥.

كالعجول

وبهذا كله

مونوا السفينة

وكما يبدو من الحراك الاجتماعي لأهالي طبرقة، فقد كانت الرحلة تسير نحو أهدافها عن طريق تعبيد أهل طبرقة طريقها، وتعويض الزائرين ما فقدوه في عرض البحر، وهو ما يمكّن أوصال التجربة الموريسكية بإفريقيّة؛ إذ يتغير الشكل المنظور ويبقى المضمون الإنساني، إلا في لحظات نادرة كحال أهل سرت، وهو ما يعني أن أهالي طبرقة عملوا على مرحلتين البعد النفسي الذي أذهب الروح المحاصر للحاج مونثون ورفاقه، والبعد الحسي المادي المتمثل بذلك الكرم الذي مؤن السفينة، وهي مواقف تحسّسها الجميع وأعادت إليهم الثقة بأنفسهم بما عُمرّوا بهم من حفاوة، والمؤكد أن أهالي طبرقة قد جسّروا العلاقة بينهم وبين الضيوف القادمين، فمنحوا رحلة الحاج مونثون في مملكتهم حركة جيدة، توازن من نالهم من تعب في البحر حتى وصلوه إليهم، وهكذا فقد كانوا يكثرثون بتلك الأحوال، وكانوا عنصرًا مهما عرضه الحاج مونثون؛ لأنهم كانوا يعملون على إعادة تشكيل مسيرة الرحلة الموريسكية، بكل ما أوتوا إلى ذلك سبيلا، وهنا نُؤشّر مسألة مهمة وهي الرخاء الاقتصادي لأهالي طبرقة، فضلا عن الأريحية العالية لجودهم الذي فاق التصور، وهو ما يعني أن ختام الرحلة الإفريقيّة لتلك النخبة الموريسكية، كان ختامًا إيجابيا بالمنجز الجمعي لأهل طبرقة.

نتائج البحث:

بعد أن أكمل الباحث كتابة هذه المفردات اليسيرة، عن وصف إفريقيّة في أناشيد الحاج بوي مونثون، تلك الرحلة النادرة التي قامت بها مجموعة موريسكية مسلمة، رغبت في حج بيت الله الحرام في زمن حظر ذلك عليهم؛ بسبب الحكم الظالم لمحاكم التفتيش الإسبانية، فليس له إلا أن

يقدم ما خرجت رحلة البحث مع تلك الأناشيد الموريسكية،
بنتائج متعددة، يمكن أن نوجزها بما هو آت:

_ كان وصول الحاج مونثون إلى تونس، يمثل نقطة
الاتصال الأولى مع المجتمعات المسلمة، لمسلم عانى الكثير
تحت قهر الإسبان، وقد ظهر تفاعله ورفاقه مع تلك
المدينة، بما أعطى صورة للعلاقة إيجابية مع مجتمع
المدينة، بما وازن الحال مع مجتمع مدينته بلنسية، وكانت
صورة واضحة للتباين بين أحوال الموريسكيين بالفردوس
المفقود وبين هذه المدينة الإفريقية.

_ كانت صورة مدينة جربة المحلية، تعطي صورة إيجابية
للرخاء بولاية إفريقية عامة، ولكنها كانت ممتنعة على
الوافد إليها، مما حضر عليهم التمتع بالكثير من مزاياها
الطبيعية والاقتصادية؛ لعدم الترحيب الذي عرف به
أهلها بالغريب الزائر لمجتمعهم، وهو ما يمثل شأنًا سلبيًا
في الذات المسلمة بشمال إفريقية؛ لأن البخل ليس من
الصفات المحمودة.

_ كذلك أعطت مدينة صفاقس صورة عسيرة لرحلة
الحاج مونثون، على الرغم من الخيرات الوافرة التي ازدانت
لها، وما جبلت عليه من تمدن العمران، ولكن ذلك كان
لمجتمعها المحلي خاصة، فقلة التعامل بالبيع والشراء، كان
هو صفة ذلك المجتمع المغلق، وهو ما يمتنع معه التفاعل
مع ذلك المجتمع من قبل الوافدين عليها، ويرسم صورة
سلبية إزاء أحواله.

_ شكل خليج سرت محطة مزعجة في الرحلة، كذلك
كان حال مدينة سرت، فكانت تشكل صورة العلاقة
المعدومة مع الآخر، فلم تحتضن الوافد عليها ومنهم تلك
المجموعة الموريسكية، بما شاهده الحاج مونثون ورفاقه
في وجودهم القصير بتلك المدينة وهو ما يعضد مجموعة
الصور السلبية التي شاهدها في البقاع السابقة.

_ تحسس الحاج مونثون ورفاق رحلته، مواقف إيجابية
قبل مغادرته البقاع الإفريقية، ونقص عن وجودهم
بمدينة طبرقة، وهي الحال الإيجابية الوحيدة؛ إذ تمتع
أولئك الموريسكيون، بحفاوة مجتمع طبرقة، الذين جيلوا

على الخير بما بمدينتهم مزاياها الجغرافية والاجتماعية
أثرت فيهم.

مصادر البحث ومراجعته

_ الاستبصار في عجائب الأمصار، مؤلف مراكشي مجهول،
دار الشؤون الثقافية، ط ١، بغداد، ١٩٨٦ م.

_ أناشيد الحاج بوي مونثون، ماريانو دي بانو إي
رواته، ترجمة، د. عبد الله أحبيلو، دار الفيصل الثقافية،
ط ١، ٢٠٠٣ م.

_ أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ابن الصباح الشاطبي،
تحقيق، د. محمد بنشريفة، دار أبي رقرق، ط ١، الرباط،
٢٠٠٨ م.

_ البلدان، اليعقوبي، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت،
١٤٢٢ هـ.

_ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى
المراكشي، تحقيق، ج.س. كولان ليفي بروفنسال، دار
الثقافة، ط ١، بيروت، ١٩٨٣ م.

_ الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري،
تحقيق، د. إحسان عباس، ط ٢، مؤسسة ناصر للثقافة،
القاهرة، ١٩٨٠ م.

_ صورة الأرض، ابن حوقل النصيبي، دار صادر، أفسست
لندن، بيروت، ١٩٣٨ م.

_ فتوح إفريقية والأندلس، ابن عبد الحكم، حققه وقدم
له، عبد الله انيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب
اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٦٤ م.

_ فتوح البلدان، البلاذري، دار ومكتبة الهلال، ط ١،
بيروت، ١٩٨٨ م.

_ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ابن أبي دينار الرعيني،
مطبعة الدولة التونسية، ط ١، تونس، ١٢٨٦ هـ.

_ المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢ م.
_ معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، ط ٢، بيروت،
١٩٩٥ م.

_ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، عالم
الكتب، ط ١، بيروت، ١٤٠٩ هـ.